رأي القدس

جولة مبارك الخليجية

■ يقوم الرئيس المصري حسني مبارك بجولة خليجية تشمل دولة الامارات العربية المتحدة والبحرين وقطر والكويت والمملكة العربية السعودية، تأتي بعد ايام قليلة من جولة مماثلة في الدول نفسها، قامت بها السيدة كوندوليزا رايس وزيرة الخارجية الامريكية.

الرئيس مبارك مقل في جولاته العربية، واقتصرت زياراته في الفترة الاخيرة على دولتين هما سورية والمملكة العربية السعودية، ضلعا المثلث الذي حكم المنطقة، وصاغ سياساتها على مدى الثلاثين عاما الماضية، ويتحمل كل النتائج التي ترتبت عليها.

اسباب عزوف الرئيس المصري عن توسيع دائرة زياراته وجولاته العربية تعود الى عوامل امنية اولا، وعدم الرغبة في لعب اي دور عربي ثانيا، وانشغال الرجل في ملفاته الداخلية المتفاقمة، خاصة بعد تزايد الانتقادات لنظام حكمه، وتجرؤ الصحافة المستقلة عليه، وشنها حملات ضد سياسته الرامية الى توريث الحكم لابنه، وثالثا وهو الاهم، زيادة نفوذ جماعة الاخوان المسلمين، وحصولها على ربع مقاعد مجلس الشعب المصري في الانتخابات الاخيرة.

وهكذا يخرج المرء باستنتاج مفاده ان دوافع قوية حتمت على الرئيس مبارك كسر هذا التقليد، وتوسيع دائرة التشاور، والقيام بمثل هذه الجولة المفاجئة والمعلنة، ودون ابداء المزيد من الاهتمام بالاعتبارات الامنية التي كانت تفرض ستارا من السرية على تحركات الرئيس مبارك الداخلية والخارجية.

المسؤولون المصريون قليلو الكلام عندما يتعلق الامر بالرئيس وجولاته، ولكن مصادر مصرية قالت ان اهم القضايا التي سيبحثها في هذه الجولة تتعلق بالملف النووي الايراني، وفوز حركة «حماس» في الانتخابات التشريعية الفلسطينية باغلبية المقاعد فاجأت الجميع، والتجديد للسيد عمرو موسى امين عام الجامعة العربية الذي تنتهي ولايته في شهر آذار (مارس) المقبل.

الدور المصري تجاه الموضوع النووي الايراني يبدو محدودا للغاية، لان ملف امن الخليج خرج من يد مصر تماما منذ ان قاد الرئيس مبارك حملة توظيف جامعة الدول العربية والقرار العربي لتشريع وجود نصف مليون جندي امريكي في الجزيرة العربية تحت ذريعة اخراج القوات العراقية من الكويت.

اما موضوع فوز «حماس» والمساعدات المالية للفلسطينيين، فقد تضاءل الدور المصري فيه، منذ ان اصبح النفوذ المصري الرسمي محصورا في جزء من قطاع غزة الذي لا تزيد مساحته على 150 ميلا مربعا.

وهكذا لم تبق القضية الاهم في جولة مبارك هي تلك التي تتعلق بالتمديد للسيد موسى امينا عاما للجامعة لفترة اخرى، والنجاح في هذه المسألة غير مضمون ايضا، لوجود «فيتو» اماراتي ـ سعودي ـ كويتي في هذا الخصوص.

الرئيس مبارك يريد ان يظل موسى في منصبه حتى لا ينافسه، وابنه جمال في انتخابات الرئاسة المقبلة، وهي انتخابات قد تأتي قبل اوانها لاسباب تتعلق بصحة الرئيس مبارك نفسه، ولهذا من المتوقع ان يبذل الرئيس المصري جهودا كبيرة في هذا الخصوص، اي التمديد، ليس حبا في موسى وانما خوفا من عصاه.

رهان الأمركة على تفعيل الإقتتال الأهلي من العراق الى لبنان

مطاع صفدي *

■ لعل أخطر أنواع العنف هو العنف المجاني. إنه بلا سبب كاف لتحققه، وبدون هدف يستحق أخطاره. وقد تمارسه فرضيات مريضة نفسياً، أو محبطة بظروفها، أو يائسة من ذاتها ومن عالمها. لكن عندما تمارسه فئات إجتماعية أو أحزاب، وحتى شعوب أحياناً، فإنه يغدو تدميراً كارثياً، غايته في ذاته فقط. في العراق انفلات للعنف من قبل كل الأطراف. وقد يكون في بعض أشكاله أنواعاً من ردود الفعل على العنف الأكبر الناجم عن الإحتلال. ويسمى في هذه الحالة مقاومة وتمرداً وثورة. لكنه في شريحة أكبر من أشكاله الأخرى يصير العنف وسيلة لممارسة أحط غرائز السطو والعدوان والانتقام. يحتل العنف بذلك شبكية العلاقات المجتمعية. تنعدم أبسط شروط الشعور بالأمان الفردي الأسروي المذهبي، في البيت والشارع والحي والمدرسة والمكتب وفي كل مكان عام لالتقاء الناس ببعضها، ليس هناك من علاقة بين الذات والآخر، أيّ آخر حتى الأقرب أحياناً، إلا ويبطنها دبيب الخوف. الجميع يخاف الجميع. الناس مرشحون إما لنموذج القاتل أو لنموذج المقتول. في ظل الرعب المعمم لا يتبقى سوى العنف وحده سيد الأفعال والانفعالات كلها. إنه العنف اللاغي لأضعف مبرراته كما لأخطرها.

لم يعد العنف العراقي مقتصراً على بلده وشعبه. لكنه يرتفع إلى مستوى الرمز العالمي الذي يمكن أن تكون له تطبيقات متنوعة، ومتنقلة من بلد إلى آخر، ومن قارة إلى ثانية وثالثة حتى يعم العالم. ليس هو العنف العراقي بالذات هو الذي ينتشر، لكنه هو الذي يبني السقف الأعلى الذي يمكن أن يبلغه العنف المطلق، حتى يغدو كل عنف آخر، في هذا البلد أو ذاك، نسبياً ويكاد يصير مبرراً. فما ينبغي أن يوصف به مطلع القرن الواحد والعشرين ليس عصر الفوضى، بل عصر العنف. والفوضى تالية عليه، وتشكل أفضل وسائله كذلك. ولقد ادّعت إيديولوجيا الأمركة المفتتحة لمسيرة الأمبطرة، إدعت أبوة هذا القرن، سمته بالقرن الأمريكي، لكن ترجمته العملية خلال السنوات القليلة الماضية، لم تكن سوى نص العنف، والتناصّ عليه حسب الاصطلاح العلمي اللساني ـ أي تداعياته ومشتقاته، أو الدوائر المتداخة حوله إلى أوسع الأقاليم جغرافياً وأبعدها استراتيجياً.

في القرن الماضي الذي اعتبره المفكرون أنه قرن الإيديولوجيات الكيانية، كان العنف هو أداة مفضلة للأدلجة، للعقيدة التوتاليتارية، لكن الأمركة جعلت العنف هو عقيدتها. بمعنى أن تصاعد العنف لم يعد بحاجة إلى أية تغطية منسوجة من غير خيوطه عينها. ولو استعنا قليلاً ببعض التحليل النفسي والفلسفي لقلنا إن الأمركة جسدّت تظهير كل العنف الذي تراكمه الحضارة في أقبيتها المظلمة والمتوارية وراء الناعمة، التي قد تتحرف إلى درجة التحريض ضد الآخر التقليدي، العرب والإسلام. وتكون بذلك عوناً للأمركة؛ فتقدم لها فرائس جديدة، حطباً جاهزاً، لاستئناف جحيمها المعمّم عالمياً.

إن إهانة (الآخر) بتحقير مقدساته، ليست نزوة فردية طارئة. إنها حلقة متكررة في مسلسل قديم قروسطي، كان اسمه صراع، أو حروب الإلغاء المتبادل بين الأمم وحضاراتها بأسلحة الديانات. ولم يغدُ التبشير بشرعة حقوق الإنسان كأعلى دستور ترتضيه جميع دول العالم لذاتها، ولعلاقاتها فيما بينها، إلا بعد أن استهلكت الحروب الكونية الكبرى تجارب الإعدام الجماعي في مختلف أشكالها التدميرية وفظائعها الجنونية، فكان منتظراً أن يهل القرن الواحد والعشرون باستراتيجية عالمية جديدة تكون قادرة أساساً على تقنين مبدأ القوة ولجم وحوشها الفالتة. لكن التوقعات المتفائلة بغلبة المدنية الإنسانية على حضارات العنف الكلياني، القائمة على فلسفات الإلغاء المتبادل، تحت أية تسميات قوموية أو أدلجية أو اقتصادية، لم تلبث أن اصطدمت بتلك الصدفة الخارقة، التي ينال فيها من هو في أدنى درجات الضعف والظلم ممن هو في قمة الاقتدار والطغيان، والمتمكن منفرداً من احتكار مركزية التهديد الأعظم للكينونة البشرية. فقد جاءت حادثة الحادي عشر من سبتمبر برد الفعل الأول من نوعه، في تاريخ الطغيان المعاصر، مفعماً برمزية صارخة، كثيفة الدلالات صانعة لكل معاني الثورة المقموعة الشاملة بالنيابة عن مظلومي الأرض قاطبة، لكنها في الوقت عينه، شكلت المناسبة المستحيلة لانطلاق طاقة الظلم والطغيان حتى حدودها القصوى، متحررة هذه المرة من آخر تسويغ أخلاقوي، ما عدا حجة الثأر والانتقام ضد كل (آخر)، يتم تعيينه كعدو بحسب مزاج المعتدي نفسه.

وهكذا تدخل إنسانية العصر مجدداً إلى حقبة حرب عالمية من نوع آخر، معممة ومخترقة للحدود، تحت يافطة اجتثاث الإرهاب، حتى لو تطلب الامر نسف أهم ثمار المدنية المشتقة من التوافق الدولي. على أن الاختلاف بين الديانات ليس جريمة، لكن حرب الأمركة جرمت ديانة الإسلام، وضعت شعوبها وأوطانها دفعة واحدة في خانة الاتهام والإدانة الجماعية. فسوّغت لجيوشها ومخابراتها وأغنيائها استباحة العالم العربي وحتى عمقه الإسلامي الآسيوي، سواء بالاحتلال العسكري المباشر أو السياسي والاقتصادي أو البوليسي، وبكل هذه العناوين جميعاً. وبذلك أمسى الحراك الاجتماعي مرتهناً بالنزاعات الدينية وأشباهها. فحيثما تتدخل الأمركة تستيقظ كل الوحوش الفئوية النائمة. ليس هذا فحسب. بل يكاد يمس العصر موبوءاً بكل أمراضه القديمة. والمفكرون يتحدثون عن عودة بربرية ما قبل التاريخ، كيما تكون هي نهايته كذلك. لم يتبق في الزمن الإنساني ثمة مستقبل للمستقبل. لقد بات الخيار الأخير أمام البشرية مشدوداً بين الفاشية أو العدمية. وكلاهما وجهان للخطيئة الأصلية، المتمثلة في قانون العودة الدائمة إلى خيار العنف المجاني كغاية في ذاته. تلك المجانية الشيطانية المتحدية للمعنى، لإمكانية التأسيس في المختلف.

أخطار أحوال العنف المجاني، عندما لا ينبثق من جهة مجهولة ما، ميتافيزيقية أو قدرية؛ بل حينما يصير تصميماً إرادوياً مخططاً له، وقراراً استراتيجياً لأكبر قوة دولية، عازمة على حكم العالم كله، بوسيلة إحياء وحوش بدائيته المنصرمة افتراضياً، وإعادة تفعيل العلاقات الضدية ما بين فئات كل مجتمع، ملء شبكية الاجتماع الدولي دون تمييز بين المتقدمين أو المتأخرين في سياق تحصيل المبادئ المدنية.

إن تجريم الديانات ومذاهبها لبعضها هو أسوأ تمرين كارثي وشيطاني تفتّقت عنه عبقرية الاحتلال الأمريكي العسكري للعراق، والسياسي للبنان. إنه يبطل ثقافة العقل أمام جموح الجماهير المستثارة فقط بغرائزها الأولية، محاولاً أن يلقي مسؤولية الفوضى والخراب على عاتق منفذي السيناريو وضحاياه وليس على مؤلفه ومخرجه. لكن الجمهور العربي مع ذلك لن ينجر إلى مجازر العنف المجاني بالسهولة التي يتصورها أساتذة الموت في البيت الأبيض والبنتاغون، بعد أن خسر هؤلاء حروبهم (الوقائية) من أفغانستان إلى العراق؛ واليوم يطمحون إلى التعويض عنها وجني أرباحها الوهمية بوسيلة اقتتال الضحايا فيما بينهم.

أنظار العالم مشدودة إلى هذا المشرق العربي الذي قُدّر له أن يخوض معارك إفشال الأمبطرة المهيمنة وتمارينها الكارثية واحداً بعد الآخر، ومن قطر مشرقي إلى آخر، وذلك بالنيابة عن هذا العالم نفسه الذي وضعته الأمركة بين خيار الفاشية أو العدمية لكل مستقبله قبل أن يمسي بدون مستقبل هو عينه.

* مفكر عربي مقيم في باريس

الامبراطوريات السادية وصمت الانظمة العربية

د. مضاوي الرشيد *

■ صور التعذيب الوحشية التي تناقلتها اجهزة الاعلام العالمية والعربية اثبتت ان العرب اليوم هم بصدد المواجهة مع امبراطوريتين ساديتين: الولايات المتحدة وحليفتها بريطانيا التي كانت يوما ما عظمى. سقطت هاتان الامبراطوريتان في مستنقع العراق اذ انهما برهنا على قدرة خارقة على ممارسة انواع متعددة من السادية التي تتلذذ بتعذيب الجسد العربي المسلم فتجد في هذا التعذيب المنظم والمتكرر والذي تخضع له الاجساد العراقية بشكل روتيني نشوة «حضارية» تطلق العنان لحيوانية الجندي البسيط ورئيسه المرتفع من أجل ممارسة انتهاك الجسد بفظاعة مفضوحة تعري الوعي واللاوعي وتختزل الضحية والجلاد في معادلة بسيطة.

الامبراطورية السادية تعذب الجسد العاري بعد ان تسلحت بفكر يمهد لعملية التعذيب هذه بل يشرعنها. ليس من المستغرب ان ينحصر التعذيب ويختصر بالانتهاك الجنسي والتعرية والاذلال للضحية من قبل جلاد ذخيرته سنوات طويلة من البحث والدراسة التي لخصت له العربي المسلم بعدة صور يتناقلتها وسائل الاعلام بعد ان خرجت هذه الصور من الاساتذة المختصين بدراسة الاسلام والشرق الاوسط. صورت هذه الدراسات العربي المسلم وكأنه حيوان متوحش يرابط داخل المساجد يزأر كالاسد في حلقات الدرس. صورت مثل هذه الدراسات العربي وكأنه ذلك المتأشق الذكري الذي يقفل على زوجاته وبناته في فضاء كالحرم. نظرة الغرب لهذا العربي لا تتجاوز كونه الفحل الذي يتنعم بسوار من الجنس الناعم ويدمر كل من تراوده نفسه بالاقتراب من هذا السوار والذي تشبهه الآلة الاعلامية الغربية بالقطيع الغنمي. ينظر الغرب للعربي وكأنه الأخير الذي «يصك على بناته» ولكنه في نفس الوقت يطارد بنات الآخرين من السمراوات والشقراوات. هو وحده الذي يقتل ذاته بنهم ولكنه ايضا يقتل معه الآخرين الابرياء. يعيش هذا العربي المسلم على أوهام العفة والطهارة والكبت الجنسي والنفسي في حياته هذه ولكنه يعلل النفس بالاماني وينتظر حياة البوهيميا والاباحية في جنات النعيم. ان وصل به العلم الى درجة عالية فهو شذوذ يكرس القاعدة العامة. ان كان العربي حسن الخلق مستقيم متعبد فهو متطرف في طريقه الى الارهاب. ان كانت امرأة متعلمة مثقفة فهي ايضا من الشواذ الذين يكسرون القيد ويتجاوزون حواجز الدين والقبيلة وقيدهما. وان كانت ربة بيت وأما مثالية فهي بالضرورة محطمة نفسياً أو آلة انجاب فعالة في تكريس استمرارية التخلف.

المسلم العربي في صور الغرب هو اليوم «الآخر» الوحيد الذي يهدد السلام العالمي والتعايش الحضاري والتعددية الدينية والثقافية التي يتبجح الغرب بها ولكنه يحاربها على كل جبهة بدءا بالاعلام وانتهاء بأروقة السياسة والقوة. يخافه الغرب لأنه وان استوعب انجازات الغرب الحضارية والعلمية الا انه يظل ينظر لهذا الغرب بازدراء وخاصة قيمه المادية وثقافته الاجتماعية. هذا العربي المسلم الشاذ عن تطور ومسيرة الشعوب يتعالى على الغرب وبكل وقاحة ليمجد اساطيره الماضية وديانته البالية وتاريخه المنقرض. اليوم وبفعل دراسات ونظريات روجها من درس العالم العربي والاسلامي يجد المسلم نفسه في صورة رسمها له الغير يرى الغربي في المسلم تلك الساحرة التي تبعثرت اشلاء جسدها بعد محاكم التفتيش الاوروبية. يرى الغربي في المسلم صومعة الراهب الناسك والمتعبد ولكنه يرى فيه القوة المعنوية التي فقدها هو نفسه. تتضارب الصور في مخيلة الغربي فيوما يصور العربي وكأنه دون جوان متنقل ويوما يراه الساجد الخاشع. يرى الغربي في العربي سيطرة الكهنوت وتضليل الشعوب باسم الدين وممارسة الاستبداد بغطاء شرعي مستمد من النصوص الدينية. هذه الخلفية الثقافية للرجل الغربي التي حددت له الاطار الذي يستطيع من خلاله ان يستوعب العربي المسلم الآخر ادت وبشكل واضح الى صور التعذيب السادية والتي ركزت في مجملها على انتهاك حرمة الجسد والجسد فقط هذا لان الغربي يختصر العربي الآخر بالدين والجنس والعنصر. عندما انتهكوا جسد العراقي كانت الامبراطوريات السادية تضرب في عمق الحضارة الاسلامية والعربية ليس من المستغرب اذا ان تختصر عملية التعذيب الوحشية بانتهاك حرمة الدين المتمثلة بتدنيس المصاحف ورسوم الكاريكاتور ومن ثم تنتقل الى رمزية تعرية الجسد الذي ينتهك عن طريق ممارسة الجنس المفضوح والشاذ بأنواعه المختلفة.

خلفية الغربي الثقافية مهدت لتجنيد المرأة الغربية ذاتها في عملية الانتهاك. لان الغربي يعتقد ان العربي المسلم يحتقر المرأة وينتهك حقوقها ويصادر قرارها لذلك نجده يعذب الذكر العربي بالانثى الغربية. صور المجندات الامريكيات وهن يتلذذن بالتعذيب السادي في مسرح زنزانات ابو غريب يتفرجن على الجسد الذي يلتوي ويئن تحت وطأة ساديتهن اللامتناهية برهنت على مدى تمادي الغرب وحضارته التي سقطت في تطبيق الارث الفكري لاعلامه السابقة والتي كانت قد لعبت دورا مهما في تخصيب المخيلة الغربية وبلورة نظرتها الى هذا العربي الآخر الخارج عن سياق التاريخ والحضارة. الجلادة الغربية تلعب الدور الاول في تطويع الذكر العربي وترويض ذكوريته وهي تعلم في مخيلتها المبنية على قراءة الثقافة الغربية من منظور عنصري انها بنظر ضحيتها عاهرة روحية فقط لا غير. فان كانت هذه هي صورتها في نظر العربي فهي نفسها تنتهك حرمة جسده لتذله لانها تعتقد ان هذا العربي كيان لا يحركه الا الجنس والحيوانية. هي تعلم انها لن تستطيع ان تقهره برصاصات صديقها المجند او طيار طائراتها الحديثة ولكنها تعتقد انها تقهره بتعرية جسده وفرض الشذوذ الجنسي عليه كجزء من عملية التعذيب وقتل النفس. عندما قطع الزرقاوي الرؤوس وتناقلت وسائل الاعلام صور سكاكينه وهي تنحر الضحية علق المعلقون على وحشية العربي المسلم الذي يقتل وجها لوجه وبالسكين. هذا المتخلف الوحشي يختلف نوعيا عن ذلك الطيار المدرب على تطويع احدث وسائل القتل البعيد اذ ان الطيار وجه حضاري غربي فهو يقتل ببرودة اعصاب ومن علو شاهق يضغط على زر الكتروني ويصيب ضحيته اصابة فيها من التقنية ما يبهر المتفرج. طيار الامبراطوريات السادية مثقف متعلم مدرب احسن تدريب على القتل البارد.

هو لا يرى الدماء ولا يشعر بحرارة جسد ضحيته قبل ان تلفظ انفاسها الاخيرة. لا يسمع صرخات الجرحى وعويل الامهات لانه بعيد يحلق في الفضاء الذي لا يملك احد السيطرة عليه سوى شخصه الحضاري.

اليوم ان اعترضنا على ممارسات الامبراطوريات السادية فنحن متهمون بالعداء للغرب وامريكا بالذات وان راعنا ما تتعرض له اجساد اخواننا واخواتنا في العراق فنحن نلوح بشعار العروبة الفاشية وان اعترضنا على رسوم تدنيس رسولنا فنحن نتبنى مقولات الاسلام الاممي الارهابي. عروبتنا فاشية رهيبة وقوميتهم شعور حضاري يوصف وكأنه نوع من Patriotism الخفيف الايجابي الذي يعبر عنه بتلويح الاعلام الامريكية المصنوعة في الصين.

مقابل هذا كله نواجه مسألة صمت الانظمة العربية. هذا الصمت له مبرراته اذ ان هذه الانظمة لا تريد ان تفتح ملفاتها الخاصة التي تؤرخ لساديتها المتطورة والتي هي مستمدة من اساليب وتكنولوجيا عالية تستوردها من الغرب الحضاري ذاته.

النظام العربي الاخرس شريك متعاون مع الغرب في اساليب التعذيب الجسدي والنفسي. الارشيف العربي للتعذيب سيبقى مغلقا الى أجل غير مسمى حتى يأتي ذلك الجيل من الرجال والنساء الذين يقلبون المعادلة ويفتحون الملف الخاص والذي حتى هذه اللحظة ما زال مقفولا بقفل كبير يمسك زمامه طيف كبير من المتعاونين والمدربين والمنظرين الذين يشتركون في الجريمة السرية في زنزانات ضيقة.

بين الحين والحين تخرج القصص الشنيعة واسرار التعذيب بين الجلاد العربي وضحيته. كثرت هذه القصص وتراكمت فتناقلتها المنظمات العربية والعالمية لحقوق الانسان. ونتج عنها نشوء ادب السجون حيث لا ادب ولا اخلاقية. المطلع على التقارير العالمية وهذا الادب لن تفوته انتهاكات الجسد والتي اصبحت روتينية تمارس بطريقة فجة. وعندما تتعهد الانظمة العربية لحليفاتها في الغرب بعدم ممارسة التعذيب مقابل استلام المطلوبين الذين يقبعون في السجون الغربية هم بذلك يعترفون صراحة ويوقعون اعترافهم على الورق بأنهم سادة التعذيب السادي.

يفوتهم دوما ان انتهاك الجسد وحرمته قد اطلق الروح والمخيلة لانتاج أدب عالمي صور المعاناة ولن ننتظر طويلا لأن يصبح هذا الأدب مقررا دراسيا مفروضا على طلاب الأدب العربي في كل عاصمة عربية كشاهد على سادية الانظمة في القرن العشرين.

منذ ان عرفنا تاريخ المجتمع الانساني نجد الانسان قد انطلق اول ما انطلق في تفكيره من الجسد اذ انه حمله رموزا متعددة المعاني يزيفه الانسان بالريش ويلونه بالالوان يطبع عليه صورا مختلفة يلبسه الحلي والسلاسل ويكسيه بانواع متعددة منها الشجر والعيدان والنسيج الخفيف والثقيل. حتى في مجتمعات العراة نراهم يزخرفون الجسد بطريقة رمزية. حضارات قديمة وديانات بنيت على مفهوم الجسد ورمزيته. حتى وصلنا الى مفهوم الجسد الحالي المسيطر في الغرب الاستهلاكي. الجسد اليوم صومعة تدرب على الاستهلاك والاثارة والابتذال تارة يجوع الى درجة مرضية حتى يفقد حيويته ونضارته ولكنه يعصر في قوالب ضيقة. اصبح الجسد اليوم سلعة رخيصة في الغرب. فقد رمزيته السابقة ولم يبق منه سوى استعراض العضلات الملتفة والجنس بانواعه الطبيعية والشاذة. وتارة يضخ بالمقويات والمنشطات او بالمخدرات حتى ينفصل صاحبه عن الوعي ويشطح به الى عالم آخر بعيد عن المحسوسات. يلهث الانسان وراء اشباع رغبات هذا الجسد فتارة يطير به الى تايلند والفلبين وتارة يحمله الى قمم جبال العالم الشاهقة. عندما كانت القيم الغربية ترفض الشذوذ الجنسي رحل به الرجل الغربي الى شواطئ شمال افريقيا بحثا عن الغلمان كما فعل اندريه جيد في تونس في بداية القرن العشرين. كان الشرق عندها يصور على انه مرتع اللذة اللامتناهية والمحرمة.

اما اليوم فالشرق ذاته بؤرة للتطرف والتقييد على الجسد. الشرق الذي كان يحج اليه الغربي بحثا عن اهوائه في الماضي قد اصبح اليوم رمزا لكبت اللذة هذه. تحت علم الامبراطوريات السادية وصمت الانظمة العربية ومباركة مثقفي السلطة الاقزام تحول العالم العربي والعراق بالذات الى زنزانة كبيرة تمارس فيها وسائل التعذيب الجسدي التي عكست شذوذا فكريا متأصلا ها نحن اليوم قد بدأنا نرى بأم اعيننا مدى تطوره وتقنيته العالية. تأتي هذه السادية مبررة تحت مظلة نقلنا حضاريا من الاستبداد الى الديمقراطية حسب مقولات الولايات المتحدة ومظلة تثبيت ـ القانون والنظام ـ حسب مصطلحات النفاق البريطاني والذي له جذور تاريخية عميقة في منطقتنا.

امريكا السادية اخذت على عاتقها المهمة الحضارية وبريطانيا تزحف خلفها تحت ستار الليبرالية المتعددة الثقافات.

اما الانظمة العربية فلا تشغل نفسها بمثل هذه المرويات الفارغة. فتعذيبها صريح مفضوح لا يعكر صفوه تقرير لجنة حقوق انسان او ما شابه. فقد جندت هذه الانظمة ابواقا كبيرة كان منها من دعاني لشكر خالقي على نعمة قدوم الامبراطوريات السادية وشكر هذه الامبراطوريات ذاتها على خدمة قضايانا في منطقة الخليج بشكل خاص. شرح لي مثقف السلطة ان قدوم الامبراطوريات كان مبنيا على طلب محلي من انظمة تتمتع بشرعية ثابتة وعتب علي لانني اعترضت على قدوم الضيف السادي بعد تلقيه عزيمة من الاقزام والمسوخ الجاثمة على صدورنا. لن اعلق على هذا الهراء بل سنكرس حقيقة مهمة وهي كوننا لا نكره الغرب بالجملة وسنظل نفتح الباب للحوار مع شرائح كبيرة في الغرب ذاته تنفر من تصرفات حكوماته. وسنكون وهم جسرا يعبره التفاهم والالتقاء الحضاري الذي يفضح سادية القوي الغربي والعربي معا وحقيقة تضامنهم. نعم لنا اصدقاء في الغرب نعتمد عليهم في ايصال صوتنا بطريقة سلمية حضارية. ولكننا سنظل نذكر انفسنا واجيالنا القادمة انهم بالأمس غزونا ثم كتبونا ورسمونا واليوم «حلوا» علينا صنوفا ثم عذبونا وصورونا ولكنهم ابدا لن يقتلونا.

* كاتبة واكاديمية من الجزيرة العربية

ناطقون باسم سورية؟

ميشيل كيلو

■ تتحدث الدول باسمها ولا تسمح لأحد بالحديث نيابة عنها، خاصة في الشؤون الحساسة، التي تتصل بمصالحها العليا، إلا سورية فهي تجيز لأي كان الحديث باسمها، بمجرد أن يعلن انحيازه، ولو الكلامي، إلى مواقفها، ويبدأ بمنحها شهادات حسن السيرة والسلوك في ما قد يكون مطروحا من أمور. وبينما تحدد الدول في اللحظات الحرجة ناطقا رسميا باسمها، يكون غالبا أحد كبار المسؤولين فيها، تترك سورية الحبل على الغارب، وتمتنع عن تحديد من ينطقون باسمها، وتسمح لكل من هب ودب، داخلها وخارجها، أن يقول بلسانه ما تحجم هي عن قوله بلسانها، ويفصح بلغته عن ما تريد هي إبقاءه طي الكتمان، لاعتقادها إن هؤلاء يقولون ما تريد قوله دون أن تكون مسؤولة عنه، وأنها بهذه الطريقة العبقرية تبلغ العالم بما تريد دون أن تبلغه بأي شيء، أي مع الاحتفاظ بحقها في أن تتنصل من آرائها، التي قالتها، ولكن على لسان غيرها، لسانها الذي لا يلزمها؟

لم يقيض لي أن أتعرف على السيد ناصر قنديل إلا من خلال شاشة التلفاز، حيث كان يقدم نفسه دوما باعتباره ناطقا رسميا غير معين باسم السياسة السورية. في كل مرة كنت أرى السيد قنديل فيها، كنت أشعر بالاستياء الشديد، ليس لأنه لا يحسن الكلام وحبك الجمل، بل لأنه كان يتحدث عن مسائل لا يحق لأحد أن يتحدث حولها بالنيابة عن بلد أنا مواطن فيه، قد تنعكس نتائج حديثه عليه بردا وسلاما، وقد تكون عكس ذلك تماما، فأدفع وغيري من المواطنين، الذين لا يمثلهم السيد قنديل ولم يكلفوه النطق باسمهم، ثمن أقواله، خاصة وأن العالم يعرف أن ما يصدر عنه ليس رأيه، بل هو رأي من يطلبون إليه قوله في دمشق، فيقوله بتلك الطرق الرعناء، التي دأب على تبنيها، وجوهرها أن للحقيقة وجها واحدا فقط، وأنه لا يمكن التعبير عنه بغير كلمات محددة فقط، وأن هذا الوجه هو وجهها الرسمي السوري، الذي استخدم للتعبير عنها كلمات محددة واظب على استعمالها طيلة نيف وثلاثين عاما، تمتدح جميعها عصمة القيادة، وبعد نظرها، وصحة سياساتها، وصواب مواقفها ... الخ، وتشهر بخطأ كل ما يقول به أو يفعله غيرها، كائنا من كان، وفي أي وقت.

لم يكن كلام السيد قنديل يزعجني لأنه غير منطقي وحسب، بل لأنه كان يحرجني من جهة ويضعني في مواجهة حيرة شديدة من جهة أخرى، أما الحرج، فلأن الرجل كان منافقا موهوبا إلى درجة يصعب تجاوزها، بينما كنت أحار لأن من يستمعون إليه من الساسة والإعلاميين السوريين كانوا معجبين به، ويستشهدون في الإعلام المحلي بما يقوله وكأنه درر الكلام وعين الصواب، بل انهم كانوا يتغزلون بأحاديثه في لقاءاتهم، ويتعاملون معه وكأنه صادر عن جهة محايدة يعتد بشهادتها، بسبب ما تتمتع به من نزاهة ويعرف عنها من تجرد وحب للحقيقة، وأهز رأسي أسفا على سلطة يواجه وطنها أعظم الأخطار فترد عليها بأعظم قدر من الاستخفاف والاستهتار، وتترك للسيد قنديل التشريق والتغريب باسمها، بما في ذلك قبل أيام قليلة من جريمة قتل الحريري، عندما قال خلال حديث عن لبنان والحريري إن دماء العملاء ستسيل قريبا في شوارع لبنان، فاعتبر قوله دليلا إضافيا على ضلوع النظام السوري في قتل الرجل؟، وكنت قد سألت أحدهم قبل الجريمة بيوم: لماذا لم تتنصل سورية من أقوال السيد قنديل الخطيرة، فابتسم وهز كتفيه استخفافا بسؤالي غير المفهوم!

كنا بناصر فصرنا بوئام وشارل . بما أنني لا أقبل لنفسي أن أتحدث عن الأول، فإنني سأقصر حديثي على ناصر الثاني، السيد شارل أيوب، الذي لا تفتح تلفازا إلا وتجده قاعدا يتحدث باسم سورية ونيابة عنها، وقد انتفخت أوداجه، وهو يشرق ويغرب بدوره، بينما تقرأ ما قاله في صحافة اليوم التالي السورية باعتباره «من أقوال الصحافة العالمية»، التي لا يأتيها الباطل. وفي الأمثال الشعبية السورية واحد يقول : شهّ القط دنبه؟

يقول شارل ما كان ناصر يقوله قبل أن يسكته ميهليس: نظام سورية على حق في كل ما يقول ويفعل، ولا مجال إطلاقا لأن يغلط أو لأن يكون بعض الصواب إلى جانب غيره، في أية قضية من القضايا وأي شأن من الشؤون. بمثل هذا الخطاب غير العقلاني، يريد السيد شارل إقناع السوريين أنهم على خطأ، عندما ينتقدون سياسات بلدهم، حتى حين تؤكد الوقائع أنها مخطئة، وإقناع اللبنانيين أنه الوحيد الذي يستطيع فهم ما يجري، بدليل أنه الوحيد تقريبا في لبنان الذي يكتب مناصرا السياسة السورية، على عماها ودون أي تحفظ.

ليس من حقي الاعتراض على حق السيد شارل أيوب في قول ما يشاء. أنا اعترض على نظام بلدي، الذي يعطيه حق التحدث باسمه، ولا يتنصل منه لأنه ينصب نفسه ناطقا رسميا باسمه، وتاليا باسم مواطنيه، الذين يرفضون، كجميع خلق الله، أن يقول أحد، شارل أيوب أو غيره، شيئا بالنيابة عنهم، ويطالبون بحصر الحديث عن وطنهم ومصالحه بحكومته أو بمن تنيبه عنها بصورة رسمية، ممن يستطيع السوريون اعتباره مسؤولا عن أقواله لهم حق مساءلته عن ما يترتب عليها من نتائج ضارة ببلدهم وبهم. أما أن ينطق السيد أيوب نيابة عن حكومة بلدي وعني، فهذا ما لا أوافق عليه، ليس فقط لأن في سورية مئات آلاف القادرين على تمثيل شعبها وسياستها خيرا منه، بل لأن الشعور بالمسؤولية يجب أن يدفع حكومتي إلى الدفاع بنفسها ودون مواربة عن مصالح بلدها، على أن تفعل ذلك بأمانة ومسؤولية وتحت القسم، وهذا شيء أفتقده في أحاديث السيد أيوب، الذي لا أستبعد أن يؤيد المواقف السورية اليوم ولا يؤيدها غدا، كما حدث في تجارب مماثلة مع أناس دافعوا عن النظام، ثم تبين أنهم لم يفعلوا ذلك حبا به، بل لأسباب أخرى، منها أن أحدا ما كلفهم بامتداح سياساته الخاطئة، كي يبقى متمسكا بها.

لا يجوز أن تتصرف الدولة وكأنها أخوية يتحدث باسمها أناس لا يحملون أية صفة رسمية، يمكن أن يحملوها وزر ما يقولونه، مع أنهم قد لا يعرفون تماما معنى ونتائج ما ينطق به لسانهم. الدول تتحدث باسمها الخاص، خاصة عندما تكون في وضع صعب. فمتى تقول حكومتنا الكريمة للسيد أيوب: إياك أن تنطق باسمنا، وارتك في دفاعك عنا، إن أنت دافعت عنا، هامشا ولو صغيرا لاحتمال أن لا تكون الحقيقة كلها عندنا، وإياك أن تحول عداوتك الشخصية إلى مواقف ملزمة لنا، ولا تنس، أيها السيد، أن رأيك يخصك وحدك، وأننا لسنا عاجزين عن قول ما نراه بلساننا الخاص، احتراما لأنفسنا ولشعبنا.

القدس العربي
يومية سياسية مستقلة
تطبع في لندن ونيويورك وفرانكفورت وتوزع في جميع انحاء العالم
الاشتراكات:
الاشتراك السنوي 450 جنيها استرلينيا في عموم بريطانيا و 750 دولارا امريكيا للوطن العربي وخارج بريطانيا بما في ذلك اجور البريد.

الناشر:
مؤسسة القدس العربي للنشر والاعلان

رئيس التحرير:
عبد الباري عطوان

المقر الرئيسي (لندن): 164/166 كنج ستريت، همرسميث، لندن دبليو 6 او كيو يو
هاتف: 8008 741 ـ 0208 (6 خطوط) ـ
فاكس: 8902 741 ـ 0208 أو 7637 748 ـ 0208
مكتب القاهرة: 43 أ شارع قصر النيل ـ الدور الاول ـ شقة رقم (2). هاتف/فاكس: 3901523(202)
مكتب المغرب: 80 شارع فال ولد عمير شقة 7 الطابق الرابع ـ الرباط. هاتف/ فاكس: 770594(37 212)
مكتب عمان: شارع الصحافة مجمع البداد التجاري الطابق الرابع.
هاتف: 5337920 فاكس: 5337928 (9626)
مكتب باريس: هاتف ـ فاكس: 57364 420 (331)

Al-Quds Al-Arabi
daily Independent News Paper
Published In London, New York and Frankfurt by Al Quds Al- Arabi Publishing LTD
Circulated in Europe, Middle East, North Africa and North America.
Editor In Chief
ABDEL BARRI ATWAN

Head Office (London): 164-166 King Street, Hammersmith, London W6 0QU England
Tel: 0208-741 8008 (6 Lines) Fax: 0208-741 8902 / 748 7637
email: alquds@alquds.co.uk * Internet: www.alquds.co.uk
Cairo Office: 43 a Kasser Al Neel St, First Floor,